الفصل الثالث

شمال افريقية فى عصر المعدن

« عصر المعدن فى مصر - عصر المعدن فى ليبيا والمغرب الكبير - المحملات الفينيقية - ظهور اليونانين فى شمال إفريقية - المجتمع المغربى فى عهد الفينقيين - الانتاج الزراعى والصناعى »

الفصل الثالث

شمال أفريقية فى عهد المعدن

شهد شمال إفريقية فى أعقاب الثورة الأول لإنتاج الطعـــام ثورة حضرية Urban Revolution (١) ، إرتبطت باستخدام المعدن الذى يعتبر فى حد ذاته بمثابة الانقلاب الثانى الكبير الذى وجه البشرية وجة جديده ، وفتح لها أفاقا واسعة . وكان النحاس أول المعادن التى أستخدمت فى صنع أدوات الزينة غير أنه لم يكن له قيمة قبل إضافة معدن آخر اليه مثل القصدير ليكون معدن أشد صلابة منه وهو البرونز . وعصر البرونز هو العصر الذى تحرر فيه الانسان من إستعمال الالات الحجرية ، وفيه خرجت الجماعات البشرية من نطاق مجتمعاتها الزراعية لتبحث عن المعدن ، ومن ثم أدى إلى إزدهار التجارة كما أدى أيضا إلى الاستعمار والسيطرة السياسية .

وعصر البرونز هو لعصر الذى شهد مقدمات الثورة الاقتصادية الكبرى التى تمخض عنها الاستقلال الاقتصادى عن موارد الأرض الزراعية والاعتماد على التجارة والصناعة (٢) ، ومن ثم فقد إرتبط هذا العصر بالحركات التوسعية للباحثين عن المعدن وباستعمار الفينيقيين لشمال إفريقية .

وفى خلال هذه الفترة كانت التجارة عاملا هاماً وراء اختلاط الجمـــاعات البشرية بعضها بالبعض الاخر إذ أنها كانت الدافع لسفر كثير من التجار الذين أختلطوا بالشعوب التى صادفتهم فى طريقهم . كما أنه فى ذلك العصر بدأت

---

(1) Childe , G. The urban revolution , ToWn planning Review, 1950 , Vol. 21 ,PP. 3-17

(2) Childe , G. Social evolution, oP. cit, PP 19–20.

الأحوال المناخية تتحسن فى أوربا وأصبح المناخ فى شمال أفريقيه أكثر جفافاً عن ذى قبل ، كما أن الغابات بدأت مساحتها تقل لتعطى مجالا لظهور حياة رعوية ولتكون فضاء متسعاً كبيراً يسمح للانسان بالانتقال فى حرية تامة فى أراض جديدة .

وتبعا لذلك فقد غزى رعاة الخيل غرب آسيا والعراق ومصر ، وتمكن الهكسوس من اخضاع مساحات كبيرة من الشرق الأوسط وذلك بعد أن عرف استئناس الحصان . وفى نفس الوقت خرجت جموع عديدة على طول الساحل الشرقى للبحر المتوسط متبعة نفس الطريق الذى صار فيه من قبل أصحاب الحضارة الميجاليثية فوصلوا لأسبانيا وفرنسا وبريطانيا . ومن سوء الحظ من وجهه النظر الأنثرولوجية أن حرق الموتى كان يمارس بدرجه كبيرة فى خلال عصر البرونز ولذلك فان معلوماتنا الجنسية عن هذه الفترة الهامة قليلة (١) . على أى حال فمن المؤكد أن الانتشار الأول لحضارة المعدن فى شمال أفريقية كان له تأثير قوى على الصفات الجنسية للشعوب التى قهرت بواسطة غزاه يحملون سلاح البطش والقوه.

وقد نشأت حضارة البرونز فى منطقة الشرق الأوسط فى حوالى الألف الرابعة ق.م . وأستمرت إلى عام ٢٥٠٠ ن.م ، وبعدها أضمحلت عقب أن حل الحديد محل البرونز فى الصناعه . وفى بداية عصر الحديد كان هناك اختلاطا بين السلالات الغنزعيه للمجوعة القوقازيه فى شمال إفريقيه نتيجة للغزو والحروب التى شنتها شعوب البحر والشعوب الهندية أوربية التى قدم بعضها عن طريق أسبانيا إلى إفريقية ، وكانت سبباً فى ادخال صفات الشقرة بين شعوب شمال أفريقية .

---

(1) Hawkes, op. cit, p.

فمع نهاية العصر الحجرى الحديث كان هناك فى شمال أفريقية جماعات متناثره من البشر أشتغلت بالزراعة وعاشت فى مرحلة الاكتفاء الذاتى فى محلات صغيره أو كبيره ، وقد كان لدى هذه الجماعات قدراً كبيراً من المعرفة إذ عرفوا تشكيل الصوان ، وصناعة الفخار والنساجة والزراعة ، وتربية واستئناس الحيوان .وهذه المجتمعات المستقره حاولت أن تنموا وتتطور فى بيئات مختلفةذات ظروف محلية خاصة . وكانت النتيجة وجود مجموعات سلالية مختلفة من الناحية الطبيعية ، ولكن رغم ذلك فقد بقيت حقيقة واحده ظهرت فى شمال أفريقية وفى جميع أجزاء العالم القديم الأخرى التى عثر بها على أدلة لحضاره العصر الحديث وهى أن طريقة حياه هذه البيئة كانت واحده .

ومن هذه الصوره البربرية المنجانسة بدأت تظهر صوره جديده لمجتمعات شمال أفريقية نتيجة للتغيرات السريعة التى أنتابت هذا الجزء من العالم بقدوم عصر المعدن .

وقد بدأ هذا التغير فى الأقاليم التى منحتها الطبيعة تربة خصبة ومناخاً صالحا مكنها من انتاج فائض من الطعام بسهولة ، ومن انصراف بعض الجماعات عن التفكير فى مجرد انتاج الطعام إلى احتراف التجاره واستيراد السلع والبضائع التى ليس فى حوزتها عن طريق المقايضة ، ومن ثم أخذ نظام التخصص فى الظهور وتقدمت الحياه الاجتماعية وبدأت المدنية .

وإذا كان التغير الذى انتاب بعض جهات شمال أفريقية بطيئاً فرجع ذلك إلى أن انسان لعصر الحجرى الحديث قد كرس كل جهوده لانتاج طعام يكفيه هو وأسرته فى تربة خصبة ولم يحدث التغير إلا بعد وجود مزيد من المواد الغذائية ، وبعد أن تمكن المزارع نفسه من إستغلال أوقات فراغه ولتمتع بالحياه .

وهكذا كان من المستلزمات الأولى لقيام المدنية فى شمال أفريقية وجود تربة خصبة سهلة الاستغلال ، متسعة تغدق الرخاء على من يستغلها تحت ظروف مناخية ملائمة .

خصر المدن فى مصر :

وقد كانت هذه الظروف متوفره فى مصر، ومن ثم كان على حضاره المدن أن تظهر فى مصر قبل أى جزء آخر من شمال أفريقية ، فكما لاحظنا فيما سبق أن الصحراء المصرية التى كانت مرتعا خصبا لصيد انسان العصر الحجرى الحديث قد أصبحت فى نهاية هذا العصر غير صالحة لاستغلال الانسان فى كل أجزائها فيما عدا تلك الأوديه الجافة التى تقترب فيها المياه الباطنية من سطح الأرض فتنمو بها الأعشاب لتجعل الحياه الرعوية ممكنة .

أما عن وادى النيل ذاته فقد قدمت الطبيعه الامكانيات اللازمه من تربة خصبه ومورد مائى متجدد حضارة راقيه ، ومن ثم لم يكن أمام سكان وادى النيل الأوائل سوى أن يبذروا حبوبهم على جانبى النهر بعد إنحسار مياه الفيضان ثم ينتظروا بعد ذلك نمو ونضج المحصول . ونظراً لخصوبه تربة الوادى فكان المحصول الواحد يفى بالحاجه . ومعنى ذلك أن كل قرية كانت مكتفيه ذاتياً من الناحيه الاقتصادية وكان لديها الأيدى العاملة اللازمه لانتاج فائض من الطعام وبالتالى كان هناك وقت فراغ سمح بظهور تخصص حرفى .

ولابد أن الرغبه فى تبادل المنتجات دفعت إلى وجود سوق يتبادل فيه سكان القرى المختلفه منتجاتهم الأمر الذى أدى فيما بعد إلى نمو مدن الأسواق « Market towns » التى تضمن وجودها قيام سلطه محلية ؛ ولكن رغم ذلك فظلت القريه مكتفيه ذاتياً . وبصفه عامه ظلت مصر فى عصر ما قبل الأسرات

أرض المجتمعات القروية حيث كانت كل جماعة منها تختص بزراعـــة حقولها بمجهوداتها الخاصه .

ومن المحتمل أيضا أن بعض المراكز الدينية التى كان يتجه اليها القرويون إلى عبادة آلهاتها كانت بمثابه مراكز للخدمات يجذب اليها سكان القرى المجاوره ، ومن ثم فقد قسمت مصر فى هـذه الفتره إلى مجموعات كبرى أو مقاطعات Nomes ولكن هـذه المقاطعات رغم أنها كانت تلعب دورا قيادياً هاما أيام الازمات الاقتصاديه إلا أنها لم تنمو لتصبح عواصم سياسيه . ولذلك فمن الاوفق أن نذكر أنه لم توجد فى مصر مدن فى فترة ما قبل الاسراب ، ولكن مع توحيد مصر أزدهر نظام الرى وبنيت المقاييس المختلفه على النيل لتكون نقطا لمراقبه فيضان النهر ، وفرض على الفلاحين العمل فى حفر القنوات للاستفاده من رى الاراضى المرتفعه البعيده عن مياه الفيضان . وهكذا ظلت مصر بلد القرى الزراعيه ومدن الاسواق .

ونظراً لأن الاراضى الخصبه التى كونها النيل على جانبيه كانت عظيمه الاتساع لذلك بدأت الهجرات البشريه تتسرب من الدول المجاوره لاراضى مصر . فوفد الليبيون من الشمال الشرقى ، وقدم الساميون من الشرق ، وجاء النوبيون والليبيون أيضا من الجنوب والجنوب الغربى . وبعباره أخرى تعرضت مصر مع بدايه التاريخ لهجرات بشريه مختلفه هـــدأت أحيانا وزاد تدفقها فى الاحيان الاخرى . وقد انتشر خليط السكان على طول واد النيل غير أنهم تركزوا فى منطقتين منفصلتين أحدهما فى جنوب أسيوط والاخرى فى الفيوم ومن ثم كان التميز بين مصر العليا والسفلى .

وفى النصف الثانى من الالاف الرابعه ق.م ، وفد إلى مصر موجه جديده من

الهجرات السامية القادمة من آسيا وحملت معها حضارة أرقى من تلك التى وجدت فى مصر ثم أستقرت بعد ذلك فى مصر السفلى (١) . ومع نهاية الألف الرابعة ق . م . ذابت الفوارق الجنسية التى كانت تميز الجماعات الوافدة المختلفة نتيجة للاختلاط والتزاوج حيث نشاهد أن جماجم نقادة ليست بسامية أو ليبية بل هى مصرية . وإذا كانت بعض الأوانى الفخارية تشبه تلك التى ما زال يصنعها بعض القبائل الموجودة فى شمال إفريقية إلا أن لغة السكان ولا سيما فى كلماتها كانت تحمل عناصر سامية مخلطة بعناصر حامية وطنية . وربما المرجع الأساسى لهذا التزاوج والتوالد هو مقدرة المصريين على استغلال الظروف الملائمة فى وطنهم لإقامة إحدى حضارات العالم القديم الكبرى .

ومن بين الحضارات التى ظهرت فى مصر فى هذه الفترة حضارة جرزة أو نقاده الثانية والسمانية والمعادى . وتختلف حضارة جرزة عن حضارة العمرة فى أنها تحمل آثار غزوة قدمت من الشمال الشرقى من خارج البلاد ، غير أنها تشبه الحضارة السابقة فى انتشارها صوب الجنوب إلى النوبة وقلب إفريقية . وتتميز منازل جرزة بأنها بنيت من محلات العمرة ولكنها رغم ذلك لا تحمل الطابع المدنى بمعنى الكلمة (٢) .

أما من ناحية الصناعات الصوانية فقد بلغت القمة فى جرزة بحيث أنها لم تصل إل نفس الدرجة فى أى مكان آخر من العالم . وقد اختلف الآت جرزه إختلافا بسيطا من ناحية الشكل عن العمرة فى حين كان الاختلاف جوهرى بين فخار جرزة والعمرة إذ أن الفخار قد صنع من صلصال أستخرج من محاجر وليس من

---

(١) يرجع البعض أن هذه الجماعات أستقرت أولا فى الشمال وأنها غزت الجنوب واستمرت فى سيرها حتى بلاد النوبة ومن ثم توغلت إلى شرق افريقية وارتريا والى جنوب افريقية

(2) Alimen, op. cit. p 120

طمى النيل كما حدث بالنسبة للثانية . ذلك إلى جانب أن الوان الفخار كانت فاتحة ومزركشة فى بعض الأحيـــان برسوم هندسية أو بأشكال بعض الحيوانات المعاصرة .

هذا ويقترح بعض الباحثين أن هناك أتصالا حضاريا قويا بين جرزه وحضاره جنوب غرب آسيا غير أن البعض الآخر ومن بينهم Alimen يذكر أن حضاره جرزه قد تكونت أساسا فى الدلتا وأنها أفترضت بعض مظاهر حضارتها الأساسية من مرمده بنى سلامة . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن حضاره جـــرزه لم تتأثر ولم تستقبل مؤثرات آسيوية وفدت اليها فى فترات متعدده .

وبالنسبة لحضاره السمانية فهذه تمثل آخر دور من عصر ما قبل الاسرات ، وتمتاز هـــذه الحضاره بتقدمها من الناحية المادية ، وتمتاز بنشاط أتصالها مع الخارج وخصوصا الاتصال بالشرق الأدنى الذى تم بطرق عديده . وينتمى إلى هذا الدور أنواع الفخار الاسطوانى الملون الذى وجد فى بعضه آثار الزيوت التى كانت تستوردها مصر من سوريا . وأما صناعة الصوان فانها ظلت قائمة ولكنها أخذت فى الاضمحلال والتدهور السريع نتيجة لاستخدام المعدن . وأهم مايلاحظ على هذه الحضاره أزدياد السكان وأرتباطهم بالقرية وزياده أعتمادهم على الزراعة ومن ثم زادت الالات الزراعية بينما أخذت تقل آلات الصيد وبدأت يحل محلها بعض رؤوس النبال البسيطة التى تستعمل فى القتال . ويبدو أن المجتمع المصرى كان فى طريقة إلى الوحده التى بدأت أولا بين المجتمعات الصغيره التى أرتقت إلى تكوين مجتمعات أكبر حتى أنتهت بتكوين الدلتا على حده والصعيد على حده ثم اتحادهما وتكوين المملكة المصرية فى عهد الاسرات .

أما عن حضاره المعادى فترتبط بموقع المعادى حيث عثر هناك على بقايا محلة

عمرانية كبيره تتكون من أكواخ ذات شكل بيضاوى مفتوحة من الجهة الجنوبية الغربية ، يحيط بها قوائم خشبية من جـــذوع الأشجار شدت حولها أغصان الأشجار الدقيقة والتى كست القوائم من الخارج بطبقة من الطين . ولسنا نعرف على وجه الدقة عما إذا كانت تلك المساكن مسقوفة أو غير مسقوفة رغم أن الغرض الرئيسى من تشييدها هو حماية أهلها من الرياح الشمالية ذات البرد القارس إذ أن الرياح الشماليه تسود فى تلك البقعة طول العام (١) .

ويكاد يكون نظام المساكن واحد إذ يوجد الموقد دائما قـــرب المدخل وبجواره قدر كبيره بعضها لحفظ المياه والبعض الاخر لتخزين الغلال وأنواع الطعام وقد حفرت تلك القدر حفرات عميقة فى التربة الرملية . وإلى جانب ذلك فقد أستخدمت أيضا فى التخزين بعض المخازن التى كانت عباره عن حفر عميقة رأسية الجوانب توضع بها بعض الانية الفخارية لصغيره .

وللآنية الفخارية بالمعادى ميزات خاصة تجعلها تختلف عن الأنواع المعروفة فى مصر فى فتره ما قبل التاريخ بعضها أحمر اللون ذات شكل مستطيل وقاعده خلفية ، وبعضها أسود اللون ذات شكل كروى مصقول السطح لها قاعده ملساء وكلها مصنوعة باليد ، بما فى ذلك القدور الكبيره على الرغم من حجمها العظيم .

وقد عرف سكان المعادى صناعة النسيج بدليل وجـــود قطعة صغيره من خرقة بالية محترقة وجدت على عمق كبير فى الطبقات والحجاره الكثيره المثقوبة وقطع الفخار المستديره وهى التى كانوا يستعملونها فى المعزل .

ويظهر أن سكان المعادى كانوا على دراية بفوائد المعدن ومزاياه فى أصنع

---

(١) لدراسة هذه الحضارة يمكن الرجوع إلى البحث الذى نشره الاستاذ عباس عامر تحت عنوان (المعادى قبل التاريخ) وصدر فى القاهرة عام ١٩٣٤ .

الآلات المختلفة ومن ثم فقد وجد مثقاب من النحاس له مقبض من العظام كما وجد سلاح يشبه الأزميل صنع من نفس المعدن (١) .

هذا وقد أعتقد سكان المعادى فى البعث بدليل دفن الأثاث معهم والذى كان يتكون فى أغلب الأحيان من بعض الأوانى الفخارية وأدوات الزينة والصيد ذلك بالاضافة إلى بعض الحيوانات المقدسة لديهم والتى دفنوها بعناية فى مقابرهم الخاصة .

وعلى الرغم من أن حضارة المعادى قد تبدو لأول وهلة بأنها متصلة بحضارة مرمدة ، وعلى الرغم من أن بعض اثار المعادى تشبه آثار البدارى إلا أنها الرابطة غير قوية بين حضاره المعادى وحضارة العصر الحجرى الحديث لأنها حضارة متأخرة عن حضارة البدارى ومرمدة ذلك إلى جانب أنه من الصعب التكهن بأصل حضارة المادى فى ضوء الكشوف الاثرية الحالية .

على أى حال فقد ارجع المصريون القدماء ـ الذين جاءوا بعد ذلك ـ كثيرا من التغيرات التى طرأت على حضارتهم فى عصر المعدن إلى الهجوات التى قدمت من الشرق وحملت معها إلى البلاد فنوناً واتباع حوريس Followers of « Horus » وهذه إشارة إلى الجماعات الاسيوية السامية التى سبق ذكرها ، والتى احضرت معها إلى مصر تقاليد حضارة ارقى وجدت فى العراق .

ومعنى ذلك أن الأتصال الحضارى المباشر بين مصر والعراق أمر لا يمكن التقليل من اهمية فى عصر المعدن غير أن هذا الاتصال لم يكن ميسورا عن طريق

---

(١) يقترح بعض الباحثين بناء على التشابه من ناحية الشكل والتركيب لبعض قطع النحاس التى وجدت فى المنطقة ، والنحاس الموجود فى شبه جزيرة سيناء أن هناك تبادل تجارى بين وادى النيل وسيناء منذ عصر ماقبل التاريخ ويؤيد ذلك وجود قطع من النحاس فى وادى العرابة تشبه تلك التى وجدت فى المعادى .

البر لأن الصحراء السوريه جعلت النقل البرى يأخذ طريقاً طويلا حول الهلال الخصيب ، إذ أن بقايا المحلات الأولى تبرهن على أن الغرباء قدموا أولا إلى مصر العليا بعد أن نزلوا على ساحل البحر الأحمر حيث تبعوا وادى الحمـــامات إلى قفط .

وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك محـــل لاعتبار العناصر الوافد سومريه إذا ما كانوا من العناصر الساميه . والاحتمال الأقرب إلى الصحة أنهم كانوا رجالا وسطاء من بحاره الخليج العربى « الخليج الفارسى » الذين كانوا عـــلى صلة وثيقة بسومر . وأن هؤلاء الوسطاء هم الذين انحدر منهم الفنيقيون ، وهم الذين نقلوا أيضا المعدن من مناجم عمان وسومر ، كما حملوا التقاليد والأفكار والبضائع السومرية إلى مصر (١) .

وقد خضعت الدلتا لنفوذ ليبيى قوى أبان عصر المعدن وقبيل حكم الأسرات إذا كانت حضاراتها أقل قوة وإزدهارا من تلك التى وجدت فى صعيد مصر والتى تمكنت بفضل طريق البحر الأحمر وقفط من أن تستمد عناصر قوتها من سـومر وكان نتيجة لذلك أن استطاعة المملكة الجنوبية تحت قيادة مينا من أن تهزم سكان مصر السفـلى وتوحد القطرين وتنقل قصبة الحـكم إلى ممفيس وذلك رغبه منها فى المحافظة على الأقليمين .

وعلى الرغم من أن الدلتا قـد أستطاعت أن تحتفظ من الناحية النظرية عـلى الأقل بشخصيتها منذ بداية الألف الثالثة حينما ذابت الفوارق تماماً بين الأقليمين

---

(١) منذ ذلك التاريخ انقطعت العلاقة بين مصر والعراق ولم تتجدد مرة ثانية الفهم عن طريق بعثات دبلوماسية طارئة الى أن التقى جيشا البلدين بعد أكثر من ألفى عام فى حرب لم يكن تأثيرها كبيراً على مصر أنظر Hawkes, op, P. 381

إلا أن العناصر المختلفة للسكان قد ساهمت جميعا فى اعطاء مصر شخصيتها التى أخذت تتبلور منذ عهد الإسرات .

وعلى هذا الأساس أخذت المدينة المصرية فى هذه الفترة تنهض وتتطور إلى أن وقفت فجأة عقب غزوة الهكسوس لمصر فى القرن ١٨ ق.م غير أن احتلال الهكسوس لمصر لم يدم طويلا إذ تمكن المصريون من إزاحة هذا الكابوس كما تمكن فراعنة مصر سيزوستريس الثالث وامنحتب الثالث من ملوك الأسرة ١٢ من أن يؤكدوا أهمية موقع مصر كقوة إفريقية فبدلا من الأكتفاء كغيرهم من ملوك الأسرات السابقة من توسيع نطاق نفوذهم التجارى والسياسى صوب الجنوب اتجهوا إلى غزو سوريا حيث اخضعوا كل المنطقة الساحلية الممتدة من غزة جنوبا إلى اجاريت شمالا وربما وصلوا أيضا إلى سهل العمق

وقد ترتب على غزو الهكسوس للدلتا أن جعلوا عاصمة ملكهم فى مدينة أفاريس فى شرق الدلتا ، وقد اسهب المؤرخون والباحثون فى تعليـــل أسباب اختيارهم هذه المنطقة لاقامة قصبة ملكهم غير أننا يجب أن نوضح أنه لم يثبت بعد أنهم من الجماعات السامية (١) رغم أن اقامة عاصمتهم قرب الحدود الشرقية لمصر يتفق مع حقيقة دخولهم لمصر عن طريق سيناء .

وردا على الغزوات الآسيوية المتبربرة نجح المصريون فى مطاردة الجماعات الدخيلة فوصلوا إلى المنحدرات الجنوبية للبنان ثم تقدموا صوب المدن السورية ومن ثم سارع الحيثيون والاشوريون لاسترضاء مصر بطريق شيء . وهكذا

---

(١) لايدل اسم الهكسوس على شيء غير أن مانيتو Manetho يذكر أنهم كانوا من العيثيين والعرب وأنهم ليسوا من سلالة واحدة أو من منطقة واحدة .

دخلت مصر فى مجال السياحة العالمية بعد أن أحتلت مركزا استعماريا مرموقا فى الشرق الأوسط .

والخلاصه أنه على الرغم من التغيرات الجذرية التى أنتابت مصر إبان عصر المعدن إلا أن الاقتصاد المصرى منذ بداية تشكيلة اعتمد أساسا على الزراعة ، فالاغلبية العظمى من السكان كانت تعيش وتعمل فى الارض ، وانهم كانوا فى حاجة إلى سوق يتبادلون فيها منتجاتهم ويحصلون منها على الاشياء التى لا يوجد مثيلا لها لديهم . ولا بد وأن المدينة كانت مركزا لأصحاب المحلات التجارية المتعددة ولرجال الحكومة والكهنة الذين الحقوا بخدمة المعبد المحلى ، غير أنه لم يوجد فى هذه المدن تكتلات صناعية كبيرة أو تجارية على نطاق واسع بحيث تخدم تجمع بشرى كبير يسمح فى نفس الوقت بنشأة طبقة متوسطة تمتهن التجارة إذ لايوجد هنا التنظيم المدنى الصحيح Urban organizatisn الذى يمكن أن نطلقه على المدينة .

وعلى الرغم من الاختلاف الكامل فى النظام الاقتصادية الاساسية للمجتمع المصرى فى الألف الثانية ق.م. وفى القرن ١٩ إلا أننا نستطيع أن نقول ان الاحوال الاجتماعية فى ريـــف مصر لم تختلف كثيرا فى الفترتين إذ أن أغلب السكان كانوا من الفلاحين المستقرين فى قرى ومدن صغيرة (١) ، وكانت السلطة الادارية تتركز فى يد بعض الافراد المسنين من قبل الحكومة المركزية وحتى فى العاصمة حيث تمثلت هناك كل عناصر الحضارة لم يكن هناك نظام برلمانى أو بلدى وبعبارة أخرى لم يكن هناك أساسا لروح المدنيه Civil spirit

---

(١) انظر :

W. R. Kermack, Some geograPhical notes on Ancient Egypt, Scot Geog. Mag., 1917' Vol. 33' pp 29 - 30 .

التى تعتمد على حق المشاركة فى الحكم ووجود نظام بلدى .

وهكذا لم تتمخض الحضاره المصريه فى عصر المعدن عن التقدم المدن إذ أن مصر لم تعرف المدن بمعنى الكلمه وذلك على النقيض من بابل وشومر . وبطبيعه الحال كان سبب ذلك كما سبق أن ذكرنا الوضع الاجتماعى للسكان فى مصر الذى اتصل اتصالا وثيقا بطبيعة الارض التى نشؤا عليها وارتبطوا بها

عصر المعدن فى ليبيا والمغرب .

أما بالنسبه لعصر المعدن فى بقيه دول شمال إفريقيه فنلاحظ أن هذا العصر كان بدايه لفترة جديدة فى حياة بلاد المغرب إذ أن جماعات البربر ظلت تعيش فى حياتها المنتميه لمرحلة العصر الحجرى الحديث على هيئه قبائل مستقره تعتمد على الرعى والزراعة إلى أن قدمت السفن الفينيقيه من شرق البحر المتوسط ورست على الساحل الشمال الإفريقى ومن ثم حدث الالتقاء الأول بين البربر والفينيقيين ، وبدأت الجماعات الأولى تتعرف على معالم عصر المدينه التى حملة اليهم جماعات من الملاحين المهرة كانوا على دراية بحياة المدن .

وقد امتاز هذا العصر بالنسبه لشمال إفريقيه بتداخل الجماعات البربريه والفينيقية الساميه الاصل مع العناصر اليونانية والرومانية الهنديه الأوربية الأصل وذلك فى المجالات الجنسية والاقتصادية والحضارية فاحتكاك الفينيقيين بالبربر والتعامل الاقتصادى القائم بينهم على الاستيراد والتصدير تطلب إنشاء محطات ساحلية وموانى ترسو عندها السفن لتحقق ذلك ومن ثم بدأ الفينقيين أختيار الاماكن المناسبة لهذا الغرض (١) . وبعبارة أخرى فان المدن التى أقامها

---

(١) من الكتب التى تناولت دراسة هذه المنطقة كتاب هارولد بيك

الفينيقيون على الساحل الشمالى لإفريقية تمثل تمدين مجتمعات زراعية إذ أن كل هذه المواقع قد أختيرت لانها تقدم أمكانيات رسو السفن ولذلك فقد أسست لاغراض تجارية رغم أنه روعى منذ اللحظات الأولى لقيامها بأن تكون مدن مسورة . والسبب فى ذلك هو رغبة الفينيقيين فى حماية المدن من غارات السكان الأصليين للبلاد ويؤيد صحة ذلك العزلة الجغرافيه التى كانت عليها المدن الفينيقية إذ كانت كل مدينه تكون دولة مستقلة . يحكمها ملك خاص . ورغم ذلك فربما كانت المصالح الاقتصادية المشتركة رابطه قوية جمعت بين هذه المدن فى اتحـــاد فيدرالى

المحلات الفينيقية :

وقد أمتازت المحلات الفينيقية التى نشأت فى شمال إفريقية فى ذلك العصر بالطابع المدنى القوى إذ لم تأخذ الطابع العام الذى ميز مدن الشرق الاوسط المستقلة ، فلم يكن هناك ثمة محاولة للثراء عن طريق السلب والنهب لأن الفينيقى كان لايرغب إلا فى السيطرة على منطقة متسعة كافية لتمده بالطعام ولم يكن يبغى شيئا أكثر من ذلك لأن الفينيقيين كانوا تجارا أولا وقبل كل شىء . كما كانوا أصحاب حرفة ووسطاء فى نفس الوقت . وكانت أهم سلعهم التجارية الأخشاب المستورده من لبنان وصناعة الصباغة والعـــاج والزجاج . وقد تطلب تصنيع هذه المواد البحث عن الخدمات الأصلية المترفرة فى البيئات الاجنبية ، وكان ذلك الدوافع المبرره لإقامة مراكزهم العمرانية على الساحل الافريقى .

ومن بين الدوافع الاخرى التى ألقت بالفينيقيين على الساحل الشمالى لإفريقية أثناء عصر المعـــدن الحركات والاضطرابات السياسية التى تمخضت عن وفود الشعوب الهند اوربية إلى منطقة الشرق الاوسط فى الالف الثانيه ق.م . وبداية الالف الاولى ق . م ، ورغبتهم فى فرض سيادتهم الاقتصادية والحضارية على

سوريا وفلسطين وذلك إلى جانب القوى الأخرى الحيثية والمصرية والعراقية التى ترغب فى بسط نفوذها على المنطقة .

وهكذا فقد أعتمدت حياتهم كلية على البحر ، ومن ثم فطالما كان البحر مفتوحا أمام سفنهم ، وطالما كانت محلاتهم مستقرة لايهددها غزو ولايطمع فى الاستيلاء عليها أحد فانهم لم يكلفوا أنفسهم عبء الاستيلاء على أراضى جديدة . وحتى فى حالة أزدياد إعداد سكان المدن وصعوبة أستيعاب هذه الاعداد داخلها لم يفكروا فى توسيع نطاق نفوذهم نحـــو اليابس بل نجدهم يحاولوا أنشاء مستعمرات عبر البحار حيث يتمكنوا هناك من إقامة أسواق جديدة .

وقد تحقق الربر من مقاصد الفينيقيين الاقتصادية البحته ومن ثم فقد فتحوا لهم أوطانهم ، ولكن مشاكل البيئة الجغرافية كان من الصعب تجاهلها ولاسيما وإن استخدام الطريق البحرى تطلب اختيار مواقع ملائمة لتشييد موانىء للسفن ومن ثم حاولوا أكتشاف أنسب المواقع لعملية الاستقرار الاول وأنتهى بهم المطاف لتأسيس أول مركزاً لهم فى لسهول الواقعة فى شمال تونس لأنها أكثر صلاحية من السهول الصخرية فى المناطق الأخرى من الساحل الافريقى المغربى ، ولذلك فقد أحتلت منطقة قرطاجة مركز الصدارة بين المراكز الفينيقية الاخرى منذ بداية أستقرارهم فى شمال إفريقية أضف إلى ذلك أهميـــة موقعها الجغرافى القريب نسبيا من الساحل الفينيقى وذلك بالمقارنة بالمراكز الاخرى البعيدة ، كما أن موضع مدينة قرطاجة شكل (١٨) يسمح بالتوغل لحد ما فى الداخل أكثر من المراكز الأخرى حيث تعوق الجبال والهضاب دون تحقيق ذلك بسهولة .

ولهذا كان لموقع قرطاجة الممتاز شكل (١٩) كأحد هذه المواقع أهمية كبرى إذ كانت تستطيع بهذا الموقع أن تحكم فى مدخل حوض البحر المتوسط لقربها

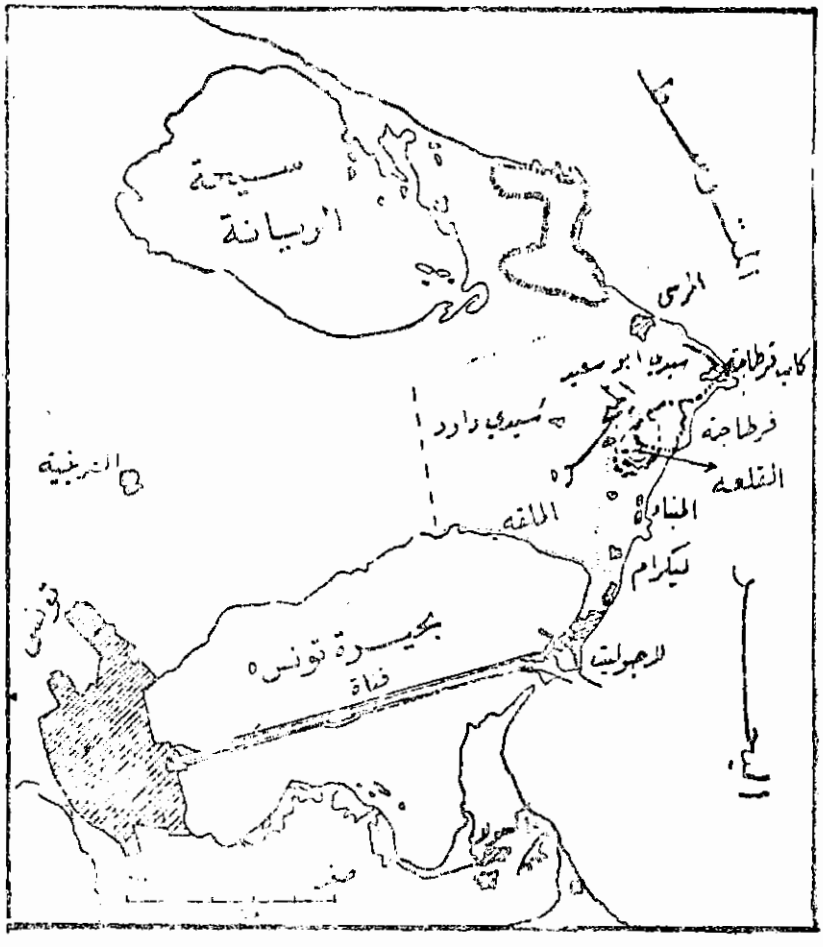

شكل (١٨) موقع مدينة قرطاجه

من مضيق صقلية ، وسيطرة على السهول التونسية التى تعتبر أكبر مساحة زراعية فى شمال إفريقية بعد مصر .

وأخذ الفينيقيون منذ القرن ١٢ ق.م. يستخدمون موانى ساحل الجزائر كنقط للارتياد فى طريقهم نحو قرطاجة مركزهم التجارى الرئيسى. وقد كانت عنابة « بون » ، وفليب فيل « اسكيكده » من بين الموانى التى لجأ اليها الفنيقيون أثنا

الجزائر فكانت تعرف لديهم باسم ايكوزيوم Ikosim (١) .

وقد استمرت عملية تأسيس المحـــلات الفينيقية والهجرة إلى شمال إفريقية بصورة تدريجية إلى أن تم الاستقرار فى حوالى القرن الثامن ق.م. حيث نشأت مراكز كثيرة على الساحل الإفريقى ابتداء من لبدة الكبرة وطرابلس فى الشرق إلى تموذه وليكسوس Lixus وجزيرة الصويرة فى المغرب شكل (٢٠) .

ظهور اليونانيين فى شمال افريقية .

وقد تميز العهد الفينيقى فى شمال إفريقية بمنافسة اليونانيين الشديدة لهم فى المجال الاقتصادى (٢) . وهناك اعتقاد بين بعض الباحثين بأن الفينيقيين أنشأوا مراكزهم على الساحل المغربى فى فترة لاحقة لوصول اليونانيين إلى هذه المناطق غير أنه يبدو أن عملية الإنشاء هذه كانت فى وقت متقارب ، وقـــد حدث أحيانا أن أن استقرت العناصر اليونانية فى منطقة ثم تمكن الفينيقيون فيما بعد من الاستحواز على السيادة الاقتصادية بها .

ولقد شملت التجارة الفينيقيه الكثير من الصناعات اليونانية ، وتبادل البربر مع الفينيقيين الأول لنشاط التجارى فى سلام ثم بدأ البربر يتعرفون عن قرب المظاهر الحضارية والتجارية الجديدة الأمر الذى ساعدهم على تطوير حياتهم المادية .

وكما اتصل الفينيقيون بالبربر وبتقالدهم فقد سادت العلاقات التجارية السليمة من ناحية أخرى بين قرطاجه ومصر وذلك عن طريق برقة التى استقر بها بعض العناصر اليونانية قرب نهاية القرن السابع ق. م.

---

(1)Barbour, RN., Asurvey of North Africa, O U P. 1962 p, 207

(٢) رشيد الناضورى - ص ١٧١ .

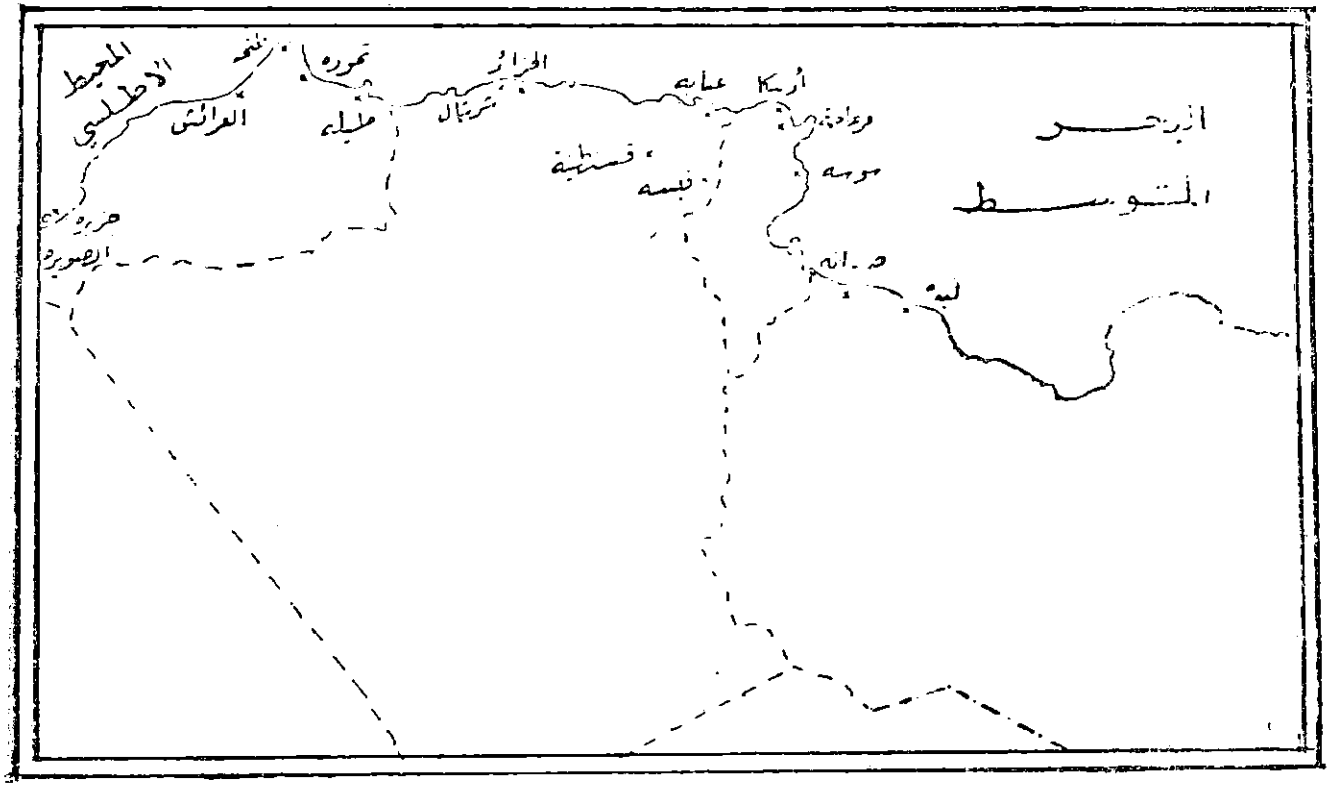

شكل ١٩ المدن الفينيقية فى شمال إفريقية

وقد أدى ازدياد المنافسة التجارية والسياسة بين الفينيقيين واليونانيين فى شمال إفريقية إلى تدهور العلاقات بينهم واتخاذها الإطار الحربى بدلا من الإطار السلمى وذلك منذ بداية ٦ ق. م. ولا سيما استقرت بعض العناصر اليونانية على الساحل الليبي فى طرابلس وحاولت منافسة القرطاجيين هناك . هذا وقد تكلفت مدينة قرطاجنة بدلا من صور بدور الدفاع عن المدن لفينيقية الأخرى التى نشأت شمال أفريقيه ودخلت فى صراع مرير مع اليونانيين بسبب التنافس الاقتصادى والسياسى بينهم . وقد تضمن هذا الصراع الرغبة فى السيادة السياسية عل وسط وغرب حوض البحر المتوسط والنزاع بين حكومات المدن فى جزيرة صقلية على الاستحواز على هذه الزعامة . وعلى الرغم من شدة جوانب هـــذا الصراع الذى تجلى فى عدد كبير من العمليات البحرية والبرية فقد انتهى ببسط سيادة القرطاحيين على شمال إفريقية .

المجتمع المغربى فى عهد الفينيقيين :

أما عن المجتمع المغربى القديم فى هذا العصر فكان مجتمعاً مختلطاً تتداخل فيه العناصر البربرية المحليه والعناصر القرطاجية الفينيقية إلى جانب العناصر اليونانيه بل أيضاً المغربية والأتروية والقبرصية والكريتية والإفريقية والزنجية . فعند ما اتصل الفينيقيون بالبربر الذين كانوا لا يزالون فى مرحلة العصر الحجرى الحديث بدأت العلاقات الفينيقية البربرية فى التطور فى المجالات الاقتصادية مما ساعد على انتقال البربر من المرحلة القبلية بمعنى الكلمة إلى مراحل أكثر تقدما نحو تكوين دولة بربرية أثناء القرطاجى . وقد كان النظام القبلى البربرى أثره على العصبية البربرية التى تعتمد على أساس صلات المصاهرة بين أفراد القبائل . فقد انفردت كل قبيلة بعصبيتها الخاصة التى عزلتها داخل نطاق محدود يتميز بوجود قلعة محصنة فى مركز منطقة انتشار القبيلة .

وإذا كانت العلاقة الاقتصادية والاجتماعيه والحضاريه بين سكان البلاد الأصليين والجماعات الوافدة قد اتسمت بالتفاهم فى بادىء الأمر إلا أن هذا الحال لم يدم طويلا أثناء التنافس القرطاجى اليونانى على السيطرة على شمال إفريقيه، ومن ثم فقد حاول البربر القيام بثورات ولكن كانوا بحاجة إلى تعاون وقيادة موحدة ولذلك فقد بدأوا يتجمعون فى شكل مجموعات من القبائل تنظم كل مجموعة منها على شكل اتحاد قبلى إقليمى برأسة أحد قادة هذه القبائل ويطلق عليه لقب « إغليد » Agueilid . وهذه الاتحادات القبليه الإقليمية التى نشأت فى حوالى النصف الثانى من العصر القرطاجى يمكن اعتبارها دولا أو ممالك مثل موريتانيا فى المغرب الأقصى ومملكه مازيسولة Massaylie فى منطقة نوميديا الغربية ومملكة ماسولة Masslie فى نوميديا الشرقية (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن نشاط المغرب فى هذه الفترة لم يقتصر فحسب على دول شمال غرب إفريقية إذ تمكنوا أيضا من الاتصال بسكان شمال شرق إفريقية أى بالمصريين القدماء عندما اضطرت العناصر الليبية أو البربرية التحرك شمالا وشمالا بشرق فى محاولة الاستقرار بعضها فى وادى النيل الأدنى على حافة الصحراء ولقد كانت تلك العناصر الليبية الأصل منذ بداية التاريخ المصرى القديم دائمة التسلل إلى مناطق الدلتا والفيوم مدفوعة بغنى الحياة الزراعية المستقره فى احضان الوادى ومنخفض الفيوم (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(٢) تمكنت العناصر الليبية المستقرة فى اهناسية بالفيوم والتى تسمى بالتحنو من الوصول إلى عرش مصر وتأسيس الاسرة ٢٢ وذلك فى حوالى ٩٥٠ ق.م على يد شيشنق الأول الذى كان قبل وصوله للعرش يحمل لقب رئيس المشوش العظيم وهى تسمية ترجع فى أصلها إلى منطقة شط الجريد جنوب قرطاجه

الانتاج الزراعى والصناعى .

أما عن النشاط الزراعى والصناعى فى مجتمعات شمال افريقية إبان عصر المعدن فقد تشكل حسب طبيعة بلاد المغرب التى تتبع أساساً أقليم البحر المتوسط . ومن ثم فقد زرع فى شمال إفريقيه الزيتون والتين والكروم والموالح واللوز ذلك إلى جانب أهتمام العناصر البربرية وخاصه الليبيين بتربيه الاغنام والدواجن ورعى الماشيه والخيول والجمال السريعه العدو .

ونظراً لأن الاقتصاد القرطاجى لم يعتمد على الزراعه أعتماداً رئيسياً وذلك لأن نشاطه الاقتصادى ارتكز بصفه خاصه على التجاره الخارجيه وما يتصل بها من عمليات التصدير والاستيراد لذا فقد نشطت فى المحلات العمرانية القرطاجية بشمال افريقية المصنوعات المعدنية والعاجية المحلية وأيضا صناعة النسيج والفخار والزجاج وقد كانت للصناعات المعدنية النحاسية والبرونزية أهمية خاصة لما تؤديه من وظيفة تسليح قوات الجيش والاسطول ، وكانت تلك الصناعات تعتمد على المواد الخام المستوردة من شبه جزيرة أيبريا التى نجح الفينقيون فى أستغلالها منذ بداية الألف الأولى ق. م.

وبالإضافة الى ذلك فقد كان لصناعة السفن شأن كبير فى شمال افريقية لأنها كانت الدعامة الأولى فى حياة القرطاجيين ، علاوة على نشاط الليبيين فى صناعة الأنسجة الصوفية والكتانيه والجلدية الفخارية والانية الزجاجية والخرز وخلافه .

والخلاصة أن بلاد المغرب قد شهدت كمصر ابان عصر المعدن تغيرات جذرية تمثلت فى الاحتكاك بشعوب مهاجرة حملت معها حضاره مختلفة عن تلك الحضارات التى كانت موجودة فى شمال افريقية . فبالنسبه لمصر لقد ظل

المصريون محافظون على طابعهم الزراعى القوى المرتبط بالارض وزراعتها والتعاون لصد غائلة الفيضان ومن ثم فبقيت القرية الدعامه الاساسيه للمجتمع المصرى فى هذا العصر ولم تتحول إلى مدن بمعنى الكلمه . أما فى بلاد المغرب فقد أثر الفينيقيون بصوره واضحه على تركيب المجتمعات الرعوية الزراعيه التى كانت موجوده هناك بعد أن أنتشرت المـــدن الفينيقيه بمنازلهم العاليه المسقوفه (١) .المطليه باللون الابيض . وقد كانت هذه المدن تجمع بين المتطلبات السياسيه والمدنيه والدفاعيه . فهناك السوق والميناء والقلعه والطرق المستقيمه التى تربط بينها . وهناك أيضـــا المنافسة الأقتصادية الشديدة بين القرطاجيين والقوى الأخرى الراغبة فى إدخال شمال إفريقية فى حوزه نفوذها الاقتصادى والاستعمارى مثل اليونانيين والرومانيين الذين لعبوا دوراً هاما فى صبغ شمال إفريقية بالصبغة اليونانية الرومانية فى الفترة التى أعقبت قفول نجم الفينقيين فى شمال إفريقية كما يوضح ذلك الفصل الثانى .

(١) بلغ ارتفاع هذه المنازل فى بعض الاحيان حوالى ستة طوابق .